حوار حول قضية

الدين والدولة

بقلم محمد النقاش

تنشر الاداب المقال التالي للاستاذ محمد النقاش ، داعية المفكرين العرب الى المشاركة في الحوار الذي تضمنه والذي يعالج احدى قضايانا العقائدية الهامة .

الجمهورية العربية المتحدة التي قامت بقطرين عربيين عام ١٩٥٨ ، والتي تقوم بثلاثة اقطار عام ١٩٦٣ ، والتي تحتم ان تجمع امه العرب كلها ذات عام قريبا ... هذه الجمهورية ليست بعثا لتاريخ قديم . بقدر ما هي تطوير وتجديد للتاريخ .

انها صفحة جديدة في تاريخ العرب ، بل في تاريخ البشرية جمعاء . ذلك انها اول وحدة قومية في العالم ، تتم دون فتح ولا غزو ولا قهر . انها بمشيئة الشعب وحده ، بمشيئة ملايين العرب ، بقبولهم الطوعي وملء اختيارهم ، وسط حماسة وحرارة ايمان منقطعتي النظير ، تتم .

ولئن وقف التاريخ مذهولا مشدوها امام تلك الوثبة الخاطفة ، ذلك « البليتز » الرائع ، الذي حمل العرب الفاتحين في سنوات معدودات من جزيرتهم المنعزلة الى اكبر ارجاء العالم القديم ، فان هؤلاء العرب اعدوا للتاريخ ، بعد ثلاثة عشر قرنا ، مفاجأة اضخم واعجب ، ووثبة اخطف واروع ، اذ انهم في مثل تلك السنوات المعدودات السعيدات ، استطاعوا ان يدحروا الاستعمار ، وان يقهروا عناصر الجمود والتخلف والانحطاط ، وان يرتفعوا الى مستوى العصر ، ويقتحموا ثانية ميادين الحضارة والرقي ، وان يتوجوا ذلك كله باتحاد يخرج الى حيز الوجود — لاول مرة — دولة العرب ، دولة جميع العرب ، متماسكة ، مرصوصة البنيان ، فوق قاعدة شعبية لا تتفسخ ولا تنقسم ولا تعرف سبيلا الى الانهيار .

انها جمهورية شعبية ، تقدمية ، تعاونية ، اشتراكية . تأخذ من تراثها أحسن ما فيه ، وتتفاعل تفاعلا خلاقا مع تراث الاخرين في الاسرة الانسانية ، وتسهم في رسالة الخير والجمال والسلام ، في انفتاح وسماحة ورحمة .

انها ليست امبراطورية امبراطور ، ولا مملكة او عدة ممالك لحفنة من الملوك والامراء والشيوخ . انها الشعب الكادح ، والشعب كله يحميها ويدافع عنها ويحقق لها النماء والازدهار والبقاء .

انها احدث دولة لامة من اعرق الامم .

ولما كان الامر كذلك ، ولما كان واضعو اسس هذه الدولة وراسمو معالمها في البيان التاريخي الذي صدر عن القاهرة في السابع عشر من نيسان ١٩٦٣ ، قد حرصوا على اعطاء مهلة اقصاها خمسة اشهر ، لوضع اسس الدستور النهائي ، وكأنهم شاءوا بذلك فسح المجال امام الشعب العربي في ان يبدي رأيه ويناقش في ما خططوه وصمموه باسمه ، — وهم ممثلوه الحقيقيون لا مراء — فاني اسمح لنفسي بنشر هذا الحوار الذي دار بيني وبين صديق ، حول البند السادس من هيكل الدستور ، ذلك البند الذي ينص على ان دين الجمهورية العربية المتحدة هو الاسلام ، ولغتها الرسمية اللغة العربية عسى ان يكون في الحوار ما يفيد ..

وليس من داع لان يعرف القارىء أي المتحاورين أنا ، فليس هذا جوهر الموضوع .

— ترى ، ما ضرورة النص على ان الاسلام هو دين الدولة ؟ انا افهم ان يكون للفرد ، للمواطن دين ، لكن كيف يكون للدولة دين ... ان الدولة شخص معنوي ، لا يستطيع ان يصلي ولا ان يصوم ، ولا ان يقوم بأي من الشعائر ...

— نعم . لكن لهذا الشخص المعنوي معتقد ، له ايمان . وكما تؤمن دولتنا بالديمقراطية والاشتراكية ، فهي تؤمن بالاسلام .

— ان الديمقراطية والاشتراكية ستكونان نهجا ومذهبا للعمل ، يشمل جميع المواطنين ، فهل يشمل الاسلام جميع المواطنين طريقا للايمان والعبادة ؟

— طبعا لا . لان في هذه الدولة مواطنين لا يدينون بالاسلام . والدستور العربي — الهيكل الذي بين أيدينا ، ينص صراحة على ان الدولة تبيح حرية المعتقد ، ولا تميز بين مواطن ومواطن ، لا على أساس العرق ولا الجنس ولا الدين .

— اذن ، كيف تفسر حصر دين الدولة بالاسلام ، من دون سائر الاديان والمعتقدات ؟

— الواقع ان المسألة معقدة بعض الشيء ، لكنها ليست مستعصية على الايضاح والتفسير . فالاسلام بالنسبة الى العرب ، ليس مجرد دين . انه ليس كالمسيحية مثلا بالنسبة الى الفرنسي او الاميركي . ان الاسلام — على الصعيد الانساني والحضاري والتاريخي — جزء من التراث العربي . بل هو اكبر تراث لهم ، فبه وبقرآنه العربي المبين ورسالته الروحية ، خرجوا من طور الجاهلية ، من ظلمات العزلة والضآلة الى دنيا النور والتكامل والعالمية والمجد . فالاسلام هو الذي جعل منهم امة عالمية ذات تاريخ . وهو — بفضل القرآن — الذي صانهم من التفتت والانحلال اللذين لم تسلم منهما اية امة قديمة . ولئن رأيت العرب اليوم ما زالوا يتكلمون اللغة التي كانوا يتكلمونها منذ قرون ، ويظاون على اتصال بتراثهم الفكري القديم اتصالا وثيقا ، يقرأونه بعيونهم ، ويتعرفون اليه مباشرة ، لا عن طريق المتاحف ونخبة من الاختصاصيين .. نعم ، لئن لم يندثر هذا التراث ، بل ظل حيا مفهوما مثارا للحب والاعجاب في كثير من الاحيان ، فذلك بفضل القرآن . واللغة يا صديقي هي أول مقومات القومية . فلولا بقاء هذه اللغة العربية على قيد الحياة ، وعلى السنة

الناس ، لما استطاع العرب اليوم ان يجتمعوا تحت شعار القومية . فوفاء لفضل الاسلام على العرب في فجر نهضتهم وعبر تاريخهم الطويل في السعود والنحوس ، شاء القادة في القاهرة ان يثبتوا في متن الدستور ان الاسلام هو دين الدولة العربية الكبرى .

ـ هل أفهم من قولك يا عزيزي أن الاسلام والقومية العربية توأمان ؟

ـ لا .. لا .. ابدا . بدليل ان الاسلام الذي امتد الى شعوب كثيرة ، بعضها متاخم لنا ، لم يعرب هذه الشعوب ، وبدليل ان في وطننا العربي الكبير من لا يدينون بالاسلام ، لكنهم في اللغة والشعور والارادة كالعرب المسلمين . فليس كل مسلم عربيا ، ولا كل عربي مسلما . مع الاعتراف بأن كل مسلم غير عربي ، ينظر بشيء من العطف للعرب ، هؤلاء الذين حملوا اليه رسالة الله، ولقنوه اياها بلغتهم . كما ان كل عربي غير مسلم يعرف التاريخ يدرك بان الاسلام كان ذا اثر بعيد في تكوين الشخصية العربية ، وترسيخها عبر الازمان والاحداث .

ـ لقد وضعت الان يدك على موضع حساس ، فهؤلاء العرب من غير المسلمين ، ما عسى ان يكون شعورهم تجاه اسلامية دولتهم ؟

ـ تعرف يا صديقي ان الاسلام دين سمح ، لا اكراه فيه . وما وجود اقلية عربية غير مسلمة في بحر زاخر من العرب المسلمين الا الدليل على رحابة الاسلام . ولئن لم يضطهد الاسلام غير المسلمين ، في العصور الخاليات، ابان الحروب الدينية وعهود دواوين التفتيش ، فلا يعقل ان يضطهدهم في دولة ديمقراطية اشتراكية . لا سيما وأن هناك نصا اشار صراحة الى المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين ، ايا يكن دينهم .

ـ انك تتكلم عن الاضطهاد بشكل جارف يا صديقي . فالاضطهاد اليوم ليس بقتل من لا يدينون بما ندين ، او بمنعهم عن ممارسة شعائر دينهم ، او باقصائهم عن المناصب والوظائف ، أو بأي نوع اخر من انواع الضغط المادي ، ان مجرد الشعور باقل ضرب من ضروب عدم المساواة، كاف لخلق عقدة الاضطهاد . واني اتصور نفسي مسيحيا مثلا ، اولد على دين آبائي في الجمهورية العربية المتحدة، وما ان ادخل المدرسة حيث أتعلم دستور بلادي ، وأرى ان دين دولتي هو الاسلام ، حتى اصاب بعقدة نقص ، وأحس بأني شخص اخر غير الكثرة من رفاقي المحيطين بي، بالنسبة الى هذه الدولة ... شخص غريب ، او دخيل ، او غير مرغوب فيه كل الرغبة . وهذا وحده كاف لان يحرمني الطمأنينة والثقة بالنفس ، وربما بالوطن كله. ولا عبرة بعدد الاقلية غير المسلمة ، أكان كبيرا أم صغيرا . يكفي ان يكون هناك الف مسيحي فقط من دولتي يخالجهم مثل هذا الشعور ، حتى يكون مبدأ المساواة بين المواطنين قد انكسر .

ـ لكن الشعور الذي تتحدث عنه قد يصيب الاقلية، حتى من دون نص دستوري . وذلك على صعيد الواقع، واقع الكثرة الساحقة امام الاقلية . فما حيلتنا في الامر؟.. انه واقع لا مفر من قبوله ..

ـ ان للمبادىء سحرا يفوق احيانا قوة الواقع . فالعربي غير المسلم ، لا يستطيع مطالبة دولته بتغيير دين الاكثرية لحسابه .. لكن من حقه ان يرى دولته تساوي بينه وبين الاكثرية في الشعور والعمل معا .

ـ تقصد .. لكن .. انما ..

ـ سلم بانك ضعفت امام هذه الحجة ، واني لاعرف فيك روح الانصاف ، فلا تجهد نفسك في الدفاع عن شيء لا تؤمن به .. زد على ذلك ان هناك تناقضا جليا فن ان تعتنق الدلة دينا ، أي دين كان ، وان تكون في الوقت نفسه تقدمية متطورة ، فالدين من وحي الله، وهو شيء منزل ، مهما اجتهدت في نصوصه واحكامه ، فانك مضطر الى الوقوف عند حد .. حد لا يجوز فيه للعقل ان يعمل . ولست أرى كيف تلزم الدولة نفسها بهذا الحد ، وهي تدعي الانطلاق الى ابعد الافاق ..

ـ ان الاسلام قابل للتطور ، مفتوح للتقدم . ولعل الجمهورية العربية المتحدة تريد ان تثبت لمواطنيها اولا، وللعالم ثانيا ، انها تستطيع الجمع بين روحية الاسلام ومقتضيات التطور الانساني . بل تريد ان تثبت ان الاسلام في اصله وجوهره ثورة . وكل زعم بأن هذا الدين، الذي هو دين العرب اولا ، يقف في وجه التطور زعم باطل، وان الانسان يجب ان يخرج من دينه كي يتقدم ، كلام هراء وبذلك يسهل العمل الثوري على الجمهورية العربية المتحدة ، فتستطيع بلوغ اقصى غايات التطور مع الاحتفاظ

بحرارة الايمان وخلقية الاسلام . ولا تنس يا صاح ان الجمهورية العربية المتحدة تولد في الميدان ، أي قد تضطر الى خوض معارك مع الاستعمار والصهيونية . وليس عند الجماهير من عقيدة اقوى من الاسلام . وليس كالاسلام عقيدة جهاد وحافز استشهاد .

ـ الشطر الاول من جوابك يعود فيما اعتقد الى المؤسسات الدينية ، بوحي او بتوجيه من الدولة ، لا فرق . فهذه المؤسسات هي المؤهلة اكثر من الدولة للنهوض بالمهمة . وها ان الازهر الشريف ، بتطوره الجديد ، قد حقق جانبا من الهدف الكبير الذي اشرت اليه . وأما مسألة الجهاد ، فهذا واقع لا ينكره احد . والدولة ـ دون نص دستوري ، وبالاعتماد على الديمقراطية وحدها ـ تستطيع ان تباشر اعمالها بتلاوة من المصحف الشريف مثلا ، وان تستشهد في نداءاتها وخطبها بآيات الله ، بل ان تحفل اذاعاتها بالاحاديث الدينية ، مع فسح مجال في المناسبات للاقليات ، كل هذا ممكن ، بل ربما كان مطلوبا ، لنشر خلقية الدين . فمع أني اعتقد بأن القوانين هي خير رادع للناس عن اتيان الخطايا والذنوب ، لا انكر انه ما من خلقية روحية رادعة كالدين ، وما من عزاء للمحزونين والمنكوبين كالدين . لكني لا افهم ولا اقبل ان يفرض تعليم ديني اسلامي في المدارس على غير ابناء الاسلام ، ولا افهم ان يفرض الاسلام دينا على الدولة ، دولة تؤكد انها تحترم حرية المعتقد ، ولا تميز بين المواطنين على اساس الدين ، بل ان الاسلام نفسه يأبى ان يفرض فرضا على أي انسان ، فكيف به على دولة بأسرها ؟ وهو حتى في شرخ شبابه وعز حماسته ، ويوم كان زمام الامر في ايدي العرب ، لم يكره احدا على اعتناقه .

ـ اراك تنجرف بتيار حماستك .. قف .. حاسب . من يتحدث عن فرض اكراه ؟ كل ما قيل ان دين الدولة هو الاسلام ، ولغتها الرسمية اللغة العربية .

ـ .. ولغتها العربية . هذا ضرب من الحشو .. اذ ما المعقول والمفروض ان تكون لغة الجمهورية العربية ؟.. والاسلام هو دين الاكثرية الساحقة في هذه الدولة .. هذا واقع لا مبرر لتأكيده ، الا اذا كان هناك مبرر للقول ان الصيدلية تبيع الادوية والعقاقير .. او ان اللحم المشوي هو للاكل .. او ان شراب البرتقال هو للشرب..

ـ وماذا عن التراث والخلقية الدينية ؟

ـ لقد وصلنا .. فقد جاء في مقدمة البيان عن ميثاق العمل القومي ومقوماته ما يأتي : « وفي ختام هذه المقومات ، فان الشعب العربي الذي يعيش في المنطقة التي نزلت فيها رسالات السماء ، يؤمن برسالة الدين ويتخذ من القوة الروحية التي تزوده بها الاديان دافعا للنضال الشعبي لتحقيق ذاته وبلوغ اهدافه . ويجب ان يثبت في تقديرنا ان الدين مقوم اساسي من المقومات التي يبنى عليها المجتمع العربي حياته ومستقبله جنبا لجنب مع جميع المقومات المادية الاخرى التي يحرص عليها الدين ولا تعارضه . وان هذا الشعب يملك من ايمانه بالله وثقته بنفسه ما يمكنه من فرض ارادته على الحياة يصوغها من جديد وفق مبادئه وامانيه » هذا النص كاف في ميثاق العمل القومي يا صديقي . لا سيما وان الميثاق أسهل على التطور والتعديل من الدستور . فالدستور لا يعدل بسهولة ، ثم كم يكون عسيرا بل شبه متعذر ان ننتزع من الدستور نصا على الدين . فحينئذ قد تتهم بالكفر والزندقة . وليس من رجل سياسة يتمنى لنفسه مثل هذه التهمة ...

ـ لكن النص الذي اوردت لا يخص الاسلام بشيء.. انه يتحدث عن الاديان عامة ..

ـ استدراك ذلك ميسور ، فحيث يقول الميثاق: « ويجب ان ينبت في تقديرنا ان الدين مقوم اساسي من المقومات التي يبنى عليها المجتمع العربي حياته ومستقبله » يمكن تعديل النص فيصبح هكذا : « ويجب ان ينبت في تقديرنا ان الاسلام وهو دين الاكثرية الساحقة من المواطنين، هو مقوم اساسي .. الخ.. الخ.. ».

ان مثل هذا النص يؤدي الى النتائج المطلوبة ، دون تناقض ، ودون احراج لاحد ، ودون تقييد الدستور بشيء تفسره قيادة كقيادة الرئيس عبد الناصر اليوم وتطبقه على وجه خير .. انما قد يأتي في المستقبل من يسيء فهمه وتفسيره وتطبيقه . بل ان قيادة عبد الناصر وحدها هي القادرة على تحرير الدستور تحريرا تاما . وكلنا يذكر انه في الدستور الموقت الذي وضعه للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ ، لم يرد نص كهذا . ولم يخطر لاحد ان يرفع صوته باحتجاج ، لان احدا لا يستطيع مزايدة جمال عبد الناصر على ايمانه وتقواه .

ـ الصحيح انك ارهقتني بجدلك الطويل .. قم بنا نستنشق الهواء في العراء .. فنحن اليوم في عيد ، اكبر عيد ، وقد نستأنف الحوار فيما بعد .

محمد النقاش